خصُومَة الأكابر *

عن أبي هريرة رضي عنه قال : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرَف ثوبه حتى أبدَي عن ركبته ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أمَّا صاحبُكم فقد غامر . فسَّلم وقال : يا رسولَ الله ، إنه كان بيني وبين ابن الخطّاب إليه ثم ندمتُ ! فسألتُه أن يَغفر لي فأبى عليَّ ! فأقبلتُ إليك . فقال : يغفر اللهُ لك يا أبا بكر ! ثلاثاً .

ثم إنَّ عمرَ ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل أثمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلَّم عليه ، فجعل وجهُ النبي صلى الله عليه وسلم يَتمَعَّرُ ! حتى أشفق أبو بكر ، فجنا على ركبتيه فقال : يا رسول الله ، أنا كنت أظلمَ ! مرتين .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبتَ ! وقال أبو بكر : صدق ! وواساني بنفسه وماله ؛ فهل أنتم تاركو لي صاحبي ؟ مرتين . فما أوذي بعدها . رواه البخاري .

* * *

المفردات

غامر : دخل في غمرة الخصومة ، والمغامر : هو الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم ، وأصل الغمرة : الماء الكثير .

يتمعَّر : يتغيَّر وتذهب نضارته من أجل الغضب ، والظاهر أنه من قولهم : مكان أمعر إذا لم يكن به خصب ؛ وفي نسخة : يتمغر : أي يحمر ، كأنه صبغ بالمغرة .

واساني ، وفي رواية : آساني بالهمز ، وهي الأصل ، وعليها يقتصر بعض أهل اللغة ، والحديث حجة عليه : والمواساة : المعاونة .

* مجلة الأزهر ، المجلد الخامس والعشرون ، العدد الرابع ١٣٧٣ = ١٩٥٣

تاركو لي صاحبي ، بحذف نون الإضافة ، وفي رواية بإثباتها وهي الأصل ، ولذا قال أبو البقاء إن الحذف من خطأ الرواة أفلا يبلغ رواة البخاري

---

* مجلة الأزهر ، المجلد الخامس والعشرون ، العدد الرابع ١٣٧٣ = ١٩٥٣

عنده مبلغ رواة النحاة ؟! مع أن لمثل هذا الحذف بين المضافين في العربية وجهاً وجيهاً وشاهداً .

* * *

الخصومة من طبيعة البشر

الخصومة من طبيعة البشر في هذه الحياة الدنيا ، لا مَعدي لهم عنها ولا محيص لهم منها ، ما داموا يختلفون ويتجادلون ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [**هود ١١٩**] ﴿**وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾ [**الكهف : ٥٤**] .

بيد أنها تختلف قوة وضعاً ، ورفقاً وعنفاً ، وقصداً وسرَفاً ، تبعاً لاختلاف الطبائع والميول ، والآراء والعقول ، وكبر النفوس وصغرها ، وعلو الهمم وسفلها .

موقف الإسلام من الخصومة

ولا يؤاخذ الإسلام أحداً باختلاف وخصومة في سبيل الحق والجهاد فيه والعمل له ما دام سليم القصد حسن الطوية ، نَّزاعاً إلى الخير ، ولو أخطأ في بعض أحيانه قصد السبيل ، بل ربما يدعو الإسلام إلى الهجرة _ وهي توءم الخصومة _ إذا كانت سبيلاً إلى التربية والتأديب . وفي هجرته صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً أبلغ حجة وأبين دليل .

كما لا يؤاخذ الإسلام أحداً كذلك بالنزعة ينزعها الشيطان في مخاصمته لأخيه ، إذا استغفره أو استغفر الله له ، معترفاً بذنبه ، عائداً من الشيطان بربه ، غير مُصِرّ على ما فعل ، ولا مجادل في بعد ما تبين .

* * *

على هذا النحو من النبَّل في الخصومة _ إن لم يكن بدٌّ منها _ كانت خصومة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما شَجَر بينهم ، وعليه تكون خصومة الذين جاءوا من بعدهم ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**الحشر : ١٠**] .

أنبل خصومة عرفها التاريخ

وفي هذا الحديث مثل أروع الأمثال في شرف الخصومة ونبلها ، يضربه لنا الصديق والفاروق بين يدي الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فنرى فيه من أعاجيب الفَضْل والنبل والسودد ثم من أساليب التربية والتزكية والتعليم ، ثم من الأعتراف بالجميل لأهله ، ما يجل عن وصف الواصفين .

* * *

كان بين الصاحبين الكريمين رضوان الله عليهما محاورة ومعاتبة ، أسرع فيها الصديق إلى الفاروق فأغضبه .. انصرف عمر غضبان أسفاً ! وأتَّبعه أبو بكر نادماً معتذراً ! يسأله أن يتقبَّل عذره فلم يقبل ، ويتوسَّل إليه أن يغفر له فلم يفعل ، بل تحرَّر بعد الفرار منه بداره ، وأغلق بابه في وجهه ! إنها لكبيرةٌ ، وسابقةٌ جدَّ خطيرة ، ليس لها أن ترفع ، إلا إلى الشفيع المشفَّع صلوات الله وسلامه عليه ...

أقبل رضوان الله عليه ، والرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ، وقد كشف عن ركبته ، وأخذ من ثوبه بحاشيته ، حتى سَلَّم وجلس وقصَّ ما كان بينه وبين صاحبه لم يظلم منه شيئاً ، وما أن فرغ من شَكاته ، حتى طَمْأنه الرسول الكريم بدعوته : أن يغفر الله له ، ثلاث مراراً يكررها ...

* * *

شذرة من مناقب العمرين :

كان الفاروق رضي الله عنه في هذه الأثناء راجع نفسه فَندم على ما كان منه لأحب الناس إليه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَلْيُسرع إذاً إلى بيته ليغفر له ويتقبَّل معذرته ، بل ليستغفره ويتعذر له ! فلما لم يجده بمنزله أسرع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .. وَمِنْ خير المربين تلقى درساً شديداً قاسياً ، غير أنه كان عظيم النفع ، حميد العاقبة .

لم يكن درساً لعمر وحده ، بل كان درساً للأمة كلها في شخص عمر ، ذلك الذي أعزَّ الله به الإسلام ، وفرَّق به بين الحق والباطل ، وأعدَّه لأمر عظيم هو

أحق به وأهله ، بعد أفضل الناس وأحبَّهم إلى رسوله وأولادهم به ، ذلكم ثاني أنثين الله ثالثهما ، ذلكم الصديق أبو بكر رضي الله عنه .

فضل الصديق عن الفاروق

فليجلس عمر إذاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس التلميذ من معلمه ، ولا بأس إذاً بأن يعرض عنه صلوات الله وسلامه عليه مراراً ، لأنه كان صاحبَ حق فأضاعه وصار مديناً ، وليذكر _ إن كان نسى _ من هو أبو بكر ؟ صاحبَ الأيادي البيضاء التي ذكرها أعرف الناس للصنيعة وأذكرهم لها صلوات الله عليه وسلامه ، فقال فيما قال من فضائله التي لم يشرك فيها أحداً غيره : إنَّ من أمنَّ في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت مُتَّخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ؛ ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سدَّ باب أبي بكر [1] .

وقال : ((ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعي مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر)) .

* * *

درسٌ نبويٌّ عظيم

وبينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يؤِّنب عمر ويعتب عليه أن لم يقبل عذر أبي بكر ولم يغفر له بعد أن استغفره ، وكان الظن به ألا اعتذار أو استغفار _ أشفق أبو بكر على عمر أن يناله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكره ، فيبرك على ركبتيه معتذراً آسفاً ، ويقسم للنبي صلى الله عليه وسلم مرتين أنه كان أظلم ، لأنه هو الذي بدأ صاحبَه بالإساءة !

وهنا يكفُّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن تأنيب عمر وتوبيخه ، ثم يذكر بعض مآثر أبي بكر ومناقبه وسبقه إلى التصديق برسالته ، ومؤاساته له بنفسه وماله ، ثم يختم حديثه عن أولى الناس به من صحابته بهذه الكلمة المدوية الجامعة : ((فهل أنتم تاركو لي صاحبي)) ؟ ويكرِّرها مرتين أو ثلاثاً كما في بعض الروايات ، تلك الكلمة التي كانت فَصْل الخطاب ، في فضل مقَدم الأصحاب ، فلم ينله من الصحابة رضوان الله عليهم مكروه بعدها .

---

[1] رواه الشيخان والترمذي ، وروى الذي يليه الترمذي .

* * *

درس إلهي أجملَّ وأعظم

وإذا أثمرت هذه الخصومة الكريمة بين العمرين ذلك الدرس النبوي العظيم ، فثمت درس إلهي أجل وأعظم ، لا يعنينا أن كان لاحقاً أو سابقاً ، ولكن يعنينا أنه تأديب رباني للناس
كافة ، ولأولي الأمر منهم خاصة ، وفي مقدَّمتهم الإمامان الخِّيران : أبو بكر وعمر .

ففي صحيح البخاري وغيره أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ركبٌ من بني تميم قال له أبو بكر رضي الله عنه : أمّر عليهم القعقاع بن معيد ؛ وقال عمر رضي الله عنه : بل أمّر الأقرع ابن حابس : فقال أبو بكر : ما أردتَ إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، ونزل قوله تعالى : ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات : ١] . إلى قوله (عظيم) فما كانا يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلا سرارا .

اختصما في الخير والمصلحة للأمة ، ولكنهما اقتاتا على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، إذ لم يكن استشارهما ، ثم عَزَب عنهما أنَّ مجلسه أجل وأرفع من أن يكون فيه تنازع أو صَخَبٌ ، وهما الأسوة الحسنة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان في هذه الآيات التأديب الإلهي الرائع ، الذي يملأ النفوس إجلالاً وإكباراً للرسول الأكرم ، وينقى المراجعة أو المجادلة مما يشوبها من كدر الخصومة ولجاَجها .

شعار الحيَّريْن بعد الدرسين

وكذلك كان هذا الأدب الرفيع شعارَهما فيما يختلفان فيه بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وهما يقلّبان وجوه الرأي ، لا وجهة لهما

إلا الخير والمصلحة ، وسرعان ما يتفقان على ما هو أهدى سبيلا ، ومن ذلك اختلافهما في قتال ما نعي الزكاة وكان رأي أبي بكر أن يأخذهم بالسيف حتى يؤدُّها كاملة ، ورأى عمر مسالمتهم وتألفهم خشية أن يكون القتال نكبة على الإسلام والمسلمين ! ولكن عزم الصديق وهو الرفيق اللين ، غلب سلم الفاروق وهو المقدام الصنديد !

ومن ذلك اختلافهما في القرآن كما أشار عمر وتحرج أبي بكر أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر للذي شرح له صدر عمر .

هذا مثلٌ من أمثال كثيرة في خصومة أولى الفضل والنبل ينادينا ألا تلغوا ولا تخاصموا فإن لم يكن بد لغو أو خصام ، فحسبكم أن تمرُّوا عليه مرور الكرام .

* * * * *